

في ذكري إيريكا رويستون

ترجمة: سهير محفوظ

مؤكدًا قدرة بعض التدابير الوقائية البسيطة، وغير المكلفة، على إحداث تأثير كبير على معدلات الوفاة والمعاناة، التي نتجاوز عنها باعتبارها جزءًا أصيلًا من الأمومة. وأسفرت التحاليل التي قامت بها عن وضع مؤشرات أساسية لنسب وفيات الأمهات، وذلك بمساعدة الكرة البلورية الموضوعية أسفل درج مكتبها، وأصبحت هذه التقديرات هي المؤشرات لعام ١٩٩٠، واستندت إليها الأهداف الإنمائية للألفية لوضع تقديراتها عن صحة الأمهات.

جين فيرجسون

لطالما كانت إيريكا بالنسبة إلي المعلمة والمرشدة على مدى حياتي العملية. عندما التقيت بها قبل ٣٠ عامًا، لم أكن أعرف مدى أهمية الدور الذي ستلعبه في حياتي. في عام ١٩٨٣، قامت إيريكا بإعطائي أولى مهامها لصالح منظمة الصحة العالمية، وكان هذا إبدانًا ببدء علاقة طويلة الأمد مع منظمة الصحة العالمية ومع إيريكا شخصيًا. كنت ناشطة في مجال صحة المرأة في الهند عندما التقيت بها، وحوّلت إلى باحثة خلال ثلاث أو أربع سنوات من العمل معها. لقد كنت مفتونة بالفرصة التي أتاحتها لي للتعلم، وكانت هي معلمة صبور.

تعلمت منها كيف أحيأ، وكيف أكون وفية لقناعاتي، وكيف أقول ما أعنيه فقط، وكيف أثمن النزاهة - والآن، تعلمت منها كيف أواجه النهاية بكل راحة ورضا.

ولكنني أظن أن أهم مرحلة في علاقتنا كانت مرحلة عملنا في تعليم الفتيات من خلال برنامج

شغلت إيريكا رويستون وظيفة إحصائية وكاتبة ومحركة بمنظمة الصحة العالمية، وصنعت اسمها من خلال دراسة حالة هجرة العاملين في مجال الصحة في البلدان النامية. ومع بداية ثمانينيات القرن العشرين، بدأت عملها في شعبة صحة الأسرة. وحدة صحة الأم والطفل. في هذه الوحدة تجسدت مهمة إيريكا، حيث عملت على تفعيل خدمة رعاية «الأم» كما يستدعي اسم الوحدة. كانت إيريكا تعلم أن سبب الوفاة الأكثر شيوعًا بين النساء، في جنوب العالم، هو الإتيان بحياة جديدة إلى هذا العالم.

بدأت إيريكا في تطوير ما أصبح لاحقًا قاعدة بيانات منظمة الصحة العالمية حول وفيات الأمهات، لعلمها بأن هذه القضية تحتاج إلى توثيق وتحديد للأعداد كي تحظى بأي قدر من الاهتمام. في تلك الأيام، التي سبقت عصر الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، كان توصيل المعلومات يتم، في مجمله، من خلال المطبوعات والتقارير. أما في دول العالم النامي، كانت النشرات الرمادية (أي غير المنشورة) هي الوحيدة التي تقدم شيئًا ما عن عناء الولادة ومصاعبها. وقد تابرت إيريكا حتى أصدرت العمل واسع الأثر «منع وفيات الأمهات»، الذي نشرته منظمة الصحة العالمية عام ١٩٨٩. قدم هذا العمل معالجة عالمية شاملة للموضوع، بداية من مقياسه حتى محدداته في الأنظمة المجتمعية والصحية، إلى جانب تحديد عواقبه وكيفية الوقاية منه. ويثّل الكتاب خلاصة ما يقرب من عقد من القراءة والتحليل، من خلال تصنيف النشرات الرمادية، وإجراء مناقشات مع بضع سيدات، من صممن على تقديم بيان حاسم عن الإجحاف والإهمال، الذي تعاني منه المتعرضات للحدث الصحي الأهم الذي تمر به نصف البشرية: الولادة، وانتهى الكتاب بدعوة إلى العمل.

إيريك أول رئيس مشارك وأمين صندوق لمجلس الأمناء. واستمر قيام إيريك بدور المرشدة في حياتي بطرق لا حصر لها منذ ذلك الوقت حتى نهاية حياتها. كانت دائمًا حاضرة في حياتي وداعمة لعملتي. إلى جانب كونها صديقة دافئة ورائعة.

مارج بيربر

التقيت إيريك رويستون مرة واحدة فقط في جنيف في أوائل تسعينيات القرن العشرين. وفوجئت بمواقفتها على مقابلي (فقد كنت. في ذلك الوقت. موظفًا شابًا أعمل في الخدمة العامة بمنظمة الصحة العالمية في المغرب. ولم أكن أتوقع أن شخصًا بقاتها سيقطع من وقته بعضًا يقضيه معي). في الواقع. وجدتها شخصية سلسلة يسهل الاقتراب منها. وكنت قد تعرفت عليها بصورة أعمق من خلال كتابها الشهير «منع وفيات الأمهات». وهو أول كتاب يصف هذ المشكلة وعواقبها بوضوح. ناقشنا الوضع في المغرب وشجعتني على المضي قدما في دراستي عن الحاجة إلى وجود عملية جراحية لإنقاذ الحياة خلال الولادة. هذه الحاجة التي لم يتم تلبيتها بعد. وكان ذلك منذ أكثر من ٢٠ عامًا ...

فنسننت دي بيربر

في أواخر ثمانينيات القرن العشرين. التقيت إيريك في منظمة الصحة العالمية عندما بدأت العمل على قاعدة بيانات الإجهاض. وعلى الرغم من أنها لم تكن المسؤولة عني وظيفيًا. فإنها كانت لي بمثابة معلمة تلقائية وشديدة السخاء. عرفتني إيريك على تعقيدات قواعد البيانات. وفي وقت لاحق عرضت علي قضية التقديرات في مجال الصحة الإيجابية. عندما بدأت في تغطية مجموعة واسعة من قضايا صحة الأم والطفل.

التعليم الاجتماعي من أجل التنمية. ما زلت أذكر استماعي لها وهي تقول للمرة الأولى إنها تريد أن «تفعل شيئًا ما لتعليم الفتيات الصغيرات» في الهند. على مدى السنوات العشر الماضية. دعمت. هي وزوجها مايكل وابنتها جين. تعليم فتيات الداليت. اللائي. لولاهم. لتسربن من التعليم الابتدائي. لقد شهدت حياة أولئك الفتيات الصغيرات تحولًا كبيرًا. قليلون هم من يستطيعون النظر إلى الماضي ويقولون إنهم قد أحدثوا تغييرًا في حياة المئات. وكانت إيريك واحدة من أولئك القلائل. لقد أثرت إيريك حياتي بمجرد التعرف إليها. ولهذا وحده أشعر بالامتنان. بوفاة إيريك. أشعر كما لو كنت قد فقدت من كان لي دليلًا مرشدًا طول حياتي. تي كيه سونداري رافيندران

عندما انخرطت في فعاليات إطلاق اليوم العالمي الأول للعمل لصحة المرأة المعني بوفيات الأمهات عام ١٩٨٨. علمتني إيريك كل ما أعرفه عن قضية صحة الأم ووفيات الأمهات في أواخر ثمانينيات القرن العشرين. بما في ذلك كيفية فهم التقديرات. كان ذلك بعد مضي عام على إطلاق منظمة الصحة العالمية أول مبادرة للأمم المتحدة لتأسيسًا على المعلومات التي وضعتها إيريك لهذا الموضوع. وفي عام ١٩٩٠. اتصلت بي لأكتب أول منشور رسمي تحت عنوان «المجموعات النسائية. والمنظمات غير الحكومية. والأمومة الآمنة». الذي حرصت على أن تعمل منظمة الصحة العالمية على نشره عام ١٩٩٢. وقد ساندني هذا العمل خلال فترة من البطالة. بينما كنت أعمل على تحرير كتاب عن المرأة و فيروس نقص المناعة البشرية والصحة الجنسية والإيجابية. وكنت أعمل مع سونداري على إعداد «قضايا الصحة الإيجابية». منذ أول اجتماع ل«قضايا الصحة الإيجابية» أثناء عيد الهالووين لعام ١٩٩٣ وحتى عام ١٩٩٨. أسند إلى سونداري منصب مساعد رئيس التحرير. وأصبحت

الوقت المناسب. ووصلت إلى جنيف مع قائمة أسماء تشمل سيدة باسلة تعمل في منظمة الصحة العالمية واسمها إيريك رويستون. واجهتني إيريك بالواقع بكل جفائه؛ قالت لي إن منظمة الصحة العالمية لا تملك أية إحصاءات تذكر عن وفيات الأمهات في البلدان النامية. لم يكن ذلك راجعاً لنقص في الموارد. أو في القدرة على جمع البيانات. ولكن لعدم وجود الإرادة السياسية في الأساس؛ وشرحت لي أن وفيات السيدات لا تمثل أهمية كبيرة كي تؤخذ في الحسبان. وخاصة عندما تكون هذه الوفيات ناجمة عن عمليات الإجهاض. غير السليمة. التي لا ترغب الحكومات في الحديث عنها. عرضت عليّ إيريك نتائج الدراسات القليلة المتاحة. وأوضحت أن ندرة البيانات كانت السبب في مزيد من الإهمال لهذه القضية. وعقب ذلك. اصطحبني لتناول الغذاء. وعبرت لي عن مشاعر الإحباط التي تملؤها وإصرارها على القيام بشيء ما حيال ذلك.

بعد مرور عقد من الزمان. تقدمت بطلب للحصول على وظيفة مؤقتة في قسم صحة الأسرة بمنظمة الصحة العالمية. ووجدت نفسي مرة أخرى في مكتب إيريك. كان من الواضح أنها لم تتذكر لقاءنا السابق. وخجلت أن أذكرها به. ولكنني رأيت أن الكثير قد تغير. لقد صدر دليل قياس معدلات الوفيات بين الأمهات. كما أثمرت العديد من الدراسات التي تتناول مستويات وفيات الأمهات في البلدان النامية؛ الشيء الذي مكن إيريك من التوصل إلى أول تقدير عالمي. بلغ نصف مليون حالة وفاة بين الأمهات سنوياً. وكان كتاب يتناول منع وفيات الأمهات على وشك الصدور. وتبعته نشرة الأمومة الآمنة. التي قامت إيريك على تحريرها حتى تقاعدت. وقدمت من خلالها الكثير للربط بين واقع البلاد وتحركات الوكالات العالمية. وعملنا معاً على كتاب الحقائق العالمية. وهو جميع لكل ما كان معروفاً. في ذلك الوقت. عن صحة الأمهات في جميع أنحاء العالم.

لقد دعمتني إيريك بمعرفتها الواسعة بكل جود وسخاء. كما شاركتني في تحليلها النقدي

وأود أن أؤكد أن الكرة البلورية. التي كانت تحب أن ترمح حولها. هي في الواقع حكمتها ومعرفتها العميقة. وبصيرتها النافذة في جميع القضايا المتعلقة بصحة الأمهات. وأعتقد أن إيريك لعبت دوراً مهماً في الدعوة للاجتماع الدولي الأول حول صحة الأم في نيروبي. عام ١٩٨٥. بل قد تكون هي من بدأت ذلك الاجتماع. لأنني أتذكر أن الدكتور هالفدان ماهر قد ذكر (عندما التقيناه أنا وإقبال شاه لمناقشة مساهمته في الطبعة الخامسة من منشور منظمة الصحة العالمية بشأن إحصائيات الإجهاض) أنه ختم عليه أن يتدخل بنفسه ليدفع الاجتماع للبدء. وفي اجتماع نيروبي. انتبه المجتمع الدولي. للمرة الأولى. لارتفاع أعداد وفيات الأمهات.

استمرت صداقتي مع إيريك بعد أن غادرت منظمة الصحة العالمية. والتقينا كثيراً خلال الأشهر الأخيرة من حياتها. كانت تعرف ما سيحدث. واختارت ألا تدخل في صراع ضارٍ مع مرضها بعد أن خضعت لعملية جراحية. وكان من الرائع رؤيتها تحسن على المستوى الجسدي (حيث استعادت قدرتها على المشي). وكان من المحزن أن أراها تواجه صعوبة في الحديث. ثم تكف تماماً عنه في الأسابيع الأخيرة. كم أفتقدتها.

إليزابيث أهمان

في أواخر سبعينيات القرن العشرين. قرر المكتب الإحصائي للمفوضية الأوروبية جميع سلسلة من الإحصاءات الاقتصادية والاجتماعية لعقد مقارنة بين أوروبا وسائر بلدان العالم. وأدرجت الإحصاءات الخاصة بوفيات الأمهات على قائمة الموضوعات المهمة. في تلك الأيام التي سبقت الإنترنت. لم يكن العثور على البيانات مهمة بسيطة. لذلك كان على شخص ما أن يذهب إلى جنيف لزيارة منظمة الصحة العالمية والوكالات الأخرى التابعة للأمم المتحدة ليلتمس مساعدة الخبراء. ثم إرسال خطابات تعريف رسمية في



إيريك رويستون

بحدود معرفتنا وحاجتنا إلى وضع افتراضات شجاعة للاستقراء من بين عدد قليل من الدراسات الوبائية حول وفيات الأمهات. وذلك لإنتاج مؤشرات للعالم. لقد أبقيت على الكرة البلورية في مكتبها لتذكرنا جميعا بأننا في بعض الأحيان لا نعرف ببساطة أين نفق. وقد نضطر إلى إجراء بعض التخمينات المبنية على معلومات.

اليوم، وُضعت قضية صحة الأمهات على رأس جدول الأعمال السياسي. وأصبح وضع التقديرات ورصد الاتجاهات صناعة عالمية يتنافس الأكاديميون ووكالات الأمم المتحدة حول تقديمها في أرقام هي الأقرب إلى الحقيقة. وبالرغم من أن تقنيات النماذج الإحصائية الحالية أبعد ما تكون عن التحليلات الارتدادية البسيطة التي قدمت في هذه الأوقات

للمعتقدات التقليدية الراهنة. كانت دائمًا تقول. يجب دائمًا التثبت مما يطرحونه. سواء كانوا من كبار مسؤولي منظمة الصحة العالمية. أو وزراء الصحة. أو موظفي الخدمة المدنية. أو حتى من الأساتذة البارزين. أخضعت إيريك الأفكار الثابتة للتساؤل: مثل فكرة «نهج الخطر». وناقشتها قائلة إن معظم حالات الوفاة بين الأمهات تقع بين من يطلق عليهن سيدات «معدلات الخطورة المنخفضة». لأن معدلات الحمل عندهن هي الأعلى. كما كانت تنتقد الاعتماد على تدريب القابلات التقليديات. مشيرة إلى أنهن يقفن عاجزات إزاء التعامل مع المضاعفات الخطيرة للحمل والولادة.

سعت إيريك إلى جمع الأدلة قبل أن يصبح منهج «الاستناد للأدلة» شعارًا. لكنها اعترفت أيضا

وكانت إيريك من أوائل من دعموا الأبحاث المتعلقة بكيفية قياس اعتلال الصحة المرتبط بالحياة الجنسية والإيجابية للمرأة. وتظل أبداً في الذاكرة زيارة القرى الريفية في مصر، حيث أجرت هدى زريق وزملاؤها دراسة رائدة حول معدلات انتشار الأمراض الإيجابية. لم تكن إيريك باستخدام تحليلها الثاقب في مناقشة طرق البحث، بل أغدقت على النساء والأطفال في مواقع الدراسة بدفء شخصيتها وإنسانيتها.

وعلى مدار سنوات، أشركتني إيريك، ضمن آخرين، في شغفها وحكمتها ورؤيتها الثاقبة. وعندما تقاعدت أعطتني كرسيها البلورية، ونصحتني باستخدامها عند إعلان معدلات وفيات الأمهات في البلدان ذات البيانات الضعيفة. ولا تزال رؤيتها صالحة اليوم كما كانت آنذاك. شكرا لك، إيريك، على ما ضربته لنا من مثل أعلى، ولما أشعلته داخلنا جميعاً من حماس. شكرا على الحياة التي ملأتها بالعمل الصالح.
كارلا أبو زهر

المبكرة. فإن التحليل النهائي ومعرفة «الحقيقة» يبقى معتمداً على اكتمال الإحصاءات في كل بلد، والثقة في مصادرها. لقد حسنت هذه العوامل بالتأكيد، ولكن الطريق لا يزال طويلاً للوصول إلى العوامل المناسبة، وهو ما كانت إيريك أول من اعترف به.

لم تفتقر إيريك أبداً إلى الشجاعة في قناعاتها. فقد كانت تعلم أن نشر معدلات وفيات الأمهات في كل بلد على حدة من شأنه أن يلهب الوضع السياسي، إلا أن عزمها على إلقاء الضوء على هذه القضية المهملة لم يفت. وكانت صريحة في إدانة السياسات، التي تمنع النساء من الحصول على رعاية الإجهاض الآمن. وقدمت الكثير للفت الانتباه لأبعاد مشكلة الإجهاض غير المأمون، وناضلت بقوة لإثبات أن وفيات الأمهات كانت واحدة من بين أعراض إهمال أوسع لصحة المرأة، وفتت الانتباه إلى المشكلة الخفية لناصور الولادة والأسباب الكامنة التي قد تؤدي إلى حدوثه، من إهمال، وسوء تغذية، بالإضافة إلى الزواج المبكر بين الفتيات.